ربح أيام العمر
في تدبر سـورة العصر

الدكتور/ سليمان بن إبراهيم اللاحم
قسم القـرآن وعلومه
كلية الشريعة وأصول الدين بالقصيم
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المقدمـــة :

الحمد لله الذي أوجد الإنسان من العدم بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا ﴾[١] والصلاة والسلام على من أرسله الله بالحق بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً. وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فإن الله عز وجل الذي خلق الخلق والذي هو أعلم بما يَصلح به حالهم ومآلهم، وما يسعدهم في دنياهم وأخراهم لم يتركهم هملاً، بل أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، ورسم لهم بذلك طريق الربح والنجاة والسعادة في الدنيا والآخرة، كما قال عز وجل: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِى لِلَّتِى هِىَ أَقۡوَمُ ﴾[٢].

وما ضلت البشرية، وفقدت السعادة، وحل بها الاضطراب والفوضى والشقاء إلا بسبب بعدها عن منهج الله وصراطه المستقيم، قال عز وجل: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾[٣].

وتعظم المصيبة ويشتد الأسى عندما ترى هذا الداء العضال يستشري حتى في المنتسبين إلى الإسلام، فترى كثيراً منهم لا يعرفون إلى السعادة طريقاً، ولم

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٦٢.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٩.

(٣) سورة الأنعام، آية: ١٥٣.

يذوقوا لها طعماً، وكتاب الله بين أظهرهم، حالهم كما قيل:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما   والماء فوق ظهورها محمول[1]

وصدق فيهم قول الحسن البصري رحمه الله حين قال: "مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا ألذّ ما فيها " .

بل تأخذك الدهشة والحيرة عندما ترى كثيراً من المسلمين يبحثون عن السعادة في غير موضعها حتى صدق فيهم قول الشاعر:

ترجو النجاة و لم تسلك مسالكها   إن السفينة لا تجري على اليبس[2]

وسيتضح لك أخي الكريم طريق الربح والنجاة والسعادة تماماً من خلال تدبرك ما ذكر الله عز وجل في سورة "العصر" وكلام أهل العلم عنها، والذي لخصته لك جمعاً واستنباطاً في هذا البحث، وسميته "**ربح أيام العمر في تدبر سورة العصر**" والذي سرت فيه على النحو الآتي:

بينت معاني الآيات، مفرداتها وجملها، ثم أتبعت ذلك بذكر الفوائد والأحكام، ثم ختمت الكلام على السورة بوقفة تأمل، ثم الخاتمة.

فأصغ سمعك وأحضر قلبك. أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يوفقني وإياك وجميع المسلمين للعلم النافع والعمل الصالح وأن يسعدنا بطاعته، كما أسأله سبحانه وتعالى أن يرزقني وإياك وجميع المسلمين الإخلاص في القول والعمل، وأن يجعل هذا الجهد في ميزان حسناتي ووالديّ إنه جواد كريم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) البيت لأبي العلاء المعري، وهو في ديوانه المسمى بسقط الزند ص ١٤٢.

(٢) البيت لأبي العتاهية، وهو في ديوانه ص١٩٤.

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ .

قال ابن كثير [1]: "ذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب، وذلك بعدما بعث رسول الله وقبل أن يسلم عمرو، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة؟ قال: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة. فقال: وماهي؟ فقال: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ ففكر مسيلمة هنيهة ثم قال: وقد أنزل عليّ مثلها، فقال له عمرو: وما هو؟ فقال: "يا وبر يا وبر إنما أنت أذنان وصدر وسائرك حقر نقر" ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب"[2].

وقال الشافعي رحمه الله: "لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم أو لكفتهم"[3].

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ الواو: حرف قسم وجر، و﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴾ مقسم به. والعصر: هو الزمان والدهر.

---

(١) في «تفسيره» ٨/٤٩٩.

(٢) قال ابن كثير بعد ذكر هذا الخبر: «والوبر: دويبة تشبه الهر، أعظم شيء فيه أذناه وصدره وباقيه دميم. فأراد مسيلمة أن يركب من هذا الهذيان ما يعارض به القرآن، فلم يرج ذلك على عابد الأوثان في ذلك الزمان».

(٣) انظر «مفتاح دار السعادة» ص٦١، «بدائع التفسير» ٥/٣٢٥، ٣٢٧ «تفسير ابن كثير» ٨/٤٩٩.

قال ابن كثير[1]: "العصر: الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم من خير وشر".

وهو الأيام والليالي، كما قيل:

ولن يلبث العصران يوماً وليلة إذا طلبا أن يدركا ما تيمما [2]

قولـــه: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ جواب القسم "والعصر" والمراد بالإنسان : جنس الإنسان.

والخسر: ضد الربح، أي: إن الإنسان جنس الإنسان من حيث هو لفي خسران ونقصان وهلاك [3].

قال الزمخشري [4]: "والخسر: الخسران، كما قيل: الكفر في الكفران، والمعنى: أن الناس في خسران من تجاراتهم إلا الصالحين وحدهم لأنهم اشتروا الآخرة بالدنيا فربحوا وسعدوا، ومن عداهم تجروا خلاف تجارتهم فوقعوا في الخسارة والشقاوة".

وقال ابن القيم [5]: "الإنسان من حيث هو إنسان خاسر، إلا من رحمه الله فهداه، ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه وأمر غيره به".

وقال أيضاً [6]: "فأقسم بالعصر الذي هو زمان أفعال الإنسان ومحلها على

(١) في «تفسيره» ٨/٥٠٠، وانظر: «الكشاف» ٤/٢٣٢.

(٢) البيت لحميد بن ثور الهلالي وهو في ديوانه، ص٨، وانظر «الجامع لأحكام القـــرآن» ٢٠/١٧٩، «بدائع التفسير» ٥/٣٢٨.وقيل المراد بالعصر: صلاة العصر، وقيل: عصر النبوة. انظر «الكشاف» ٤/٢٣٢، «الجامع لأحكام القرآن» ٢٠/١٧٩.

(٣) انظر «تفسير ابن كثير» ٨/٥٠٠.

(٤) في «الكشاف» ٤/٢٣٢.

(٥) انظر «التبيان في أقسام القرآن» ص٨٣ ــ ٨٨، وانظر «بدائع التفسير» ٥/٣٢٩.

(٦) انظر «بدائع التفسير» ٥/٣٢٩.

عاقبة تلك الأفعال وجزائها، ونبه بالمبدأ وهو خلق الزمان والفاعلين وأفعالهم على المعاد، وأن قدرته كما لم تقصر عن المبدأ لم تقصر عن المعاد، وأن حكمته التي اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين وأفعالهم".

وإقسامه عز وجل بالزمن بقوله: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴾ وكذا في مواضع عدة من القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴾ [1]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾[3]، كل ذلك للدلالة على أهمية الوقت، لأنه عمر الإنسان، ووقت العمل الصالح الذي به النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة، كما قال عز وجل: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾[4].

وهو الذي سيحاسَب عنه العبد ويسأل عنه يوم القيامة، كما قال ﷺ: "لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا

---

(١) سورة الشمس، الآيات: ١ ــ ٤.

(٢) سورة الليل، الآيتان: ١ ــ ٢.

(٣) سورة الضحى، الآيتان: ١ــ٢.

(٤) سورة الفرقان، آية: ٦٢.

عمل به"[1].

وهو مما أقام الله به الحجة على الخلق كما قال عز وجل: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ [2]. وفي الحديث: "أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلغه ستين سنة"[3].

وهو أغلى وأنفس ما أعطاه الله للعبد وأمره بحفظه.

قال الشاعر:

والوقت أنفس ما عُنيت بحفظه وأراه أسهل ما عليك يضيع

وقال الآخر:

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثواني[4]

وهو عمر الإنسان الذي بذهابه ذهاب المرء كما قيل:

يسر المرء ما ذهب الليالي وكان ذهابهن له ذهابا

وكما قيل:

المرء يفرح بالأيام يقطعها وكل يوم يدنيه إلى الأجل

وإقسامه عز وجل بالعصر على أن الإنسان لفي خسر إلا من اتصف بالصفات المذكورة بعد إشارة إلى أن الخسارة الحقيقية هي الخسارة في الدين،

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤١٧ ، من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه وقال : "حديث حسن صحيح" وأخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ٢٤١٦.

(٢) سورة فاطر، آية: ٣٧.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) البيت للشاعر أحمد شوقي وهو ضمن قصيدته في رثاء مصطفى كامل باشا، وهو في ديوانه "الشوقيات" ١٥٨/٣.

فهي المصيبة العظمى والطامة الكبرى، والجرح الذي لا يندمل، والكسر الذي لا يجبر، كما قال عز وجل: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾[2].

فالمصيبة العظمى والخسار الذي لا خسار بعده أن يصاب الإنسان في دينه، فيموت على الكفر أو على المعاصي، كما قال تعالى عن أبي لهب ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾[3]. أي خسرت يداه وخسر فعلاً. نسأل الله السلامة -فليست المصيبة - أن يصاب الإنسان بالخسارة في ماله أو في نفسه أو في أهله أو ولده، أو قريبه أو صديقه سواء بمرض أو موت أو غير ذلك، فهذا - وإن كان كله يسمى مصيبة - لكن المصيبة العظمى هي المصيبة في الدين، وكما قيل:

وكل كسر فإن الدين يجبره وما لكسر قناة الدين جبران

وهي التهلكة والهلاك فإن الأنصار رضي الله عنهم لما أعز الله الإسلام قال بعضهم لبعض: لو رجعنا لإصلاح أموالنا ومزارعنا، كأنهم أرادوا ترك

---

(١) سورة الزمر، آية: ١٥.

(٢) سورة الحج، آية: ١١.

(٣) سورة المسد، آية: ١.

الجهاد، فأنزل الله: ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ (١).

وقد فهم هذا المعنى سلف هذه الأمة من صحابة رسول الله ﷺ ومن بعدهم من ذوي البصيرة في الدين، فنأوا بأنفسهم عن المعاصي، وها هو سلمة بن صخر البياضي رضي الله عنه يأتي فزعاً مرعوباً إلى رسول الله ﷺ قائلاً: يا رسول الله هلكت وأهلكت. قال له رسول الله: ما أهلكك؟ قال يا رسول وقعت على امرأتي وأنا صائم.." الحديث (٢) فقد أحس رضي الله عنه بعظم المعصية وسوء عاقبتها وجاء تائباً يسأل عن المخرج منها.

قوله: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ استثنى عز وجل من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم(٣).

والإيمان لغة: التصديق، قال تعالى عن إخوة يوسف أنهم قالوا لأبيهم ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ (٤) أي: بمصدق.

وشرعاً: قول باللسان واعتقاد بالجنان ــ وهو القلب ــ وعمل بالأركان وهي الجوارح، وقد ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إلى أن معناه من

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٩٥.

وهذا الأثر أخرجه عن أبي أيوب الأنصاري أبو داود في الجهاد ٢٥١٢، والترمذي في تفسير سورة البقرة ٢٩٧٦، وقال "حديث حسن صحيح غريب"، وصححه الألباني. وانظر "تفسير ابن كثير" ٣٣١/١.

(٢) أخرجه البخاري في الصوم، باب إذا جامع في رمضان ولم يكن له شيء فتصدق عليه فليكفر ١٩٣٦، ومسلم في الصيام، باب تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان على الصائم ١١١١، وأبوداود في الصوم ٢٣٩٠، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر "تفسير ابن كثير" ٥٠٠/٨.

(٤) سورة يوسف، آية: ١٧.

حيث اللغة: الإقرار فلا يكفي مجرد التصديق [١].

والإيمان بمعناه اللغوي والشرعي يندرج تحته كل ما يجب الإيمان به من أركان الإيمان الستة، وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وبكل ما يجب الإيمان به من الغيوب الماضية والمستقبلة.

وقوله ﴿ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ أي: الأعمال الصالحات، والعمل لا يكون صالحاً إلا إذا توفر فيه شرطان: الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ، يدل على هذين الشرطين؛ أدلة كثيرة من الكتاب والسنة.

فمما يدل على وجوب الإخلاص لله تعالى من الكتاب قوله ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾[٢].

ومن السنة قولـــه تعالى في الحديث القدسي: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه"[٣]، ومما يدل على وجوب متابعة الرسول ﷺمن الكتاب، قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾[٤]، ومن السنة قوله ﷺ: "من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد"[٥].

---

(١) انظر: "مجموع الفتاوى" ٦٣٨/٧. وانظر "تفسير آيات الأحكام في سورة النساء" ٤٤٩/١.

(٢) سورة البينة، آية: ٥.

(٣) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٨٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠٢ ، من حـــديث أبي هريـــرة رضي الله عنه.

(٤) سورة الحشر،آية: ٧.

(٥) أخرجه البخاري في الصلح (٢٦٩٧، ومسلم في الأقضية ١٧١٨، وأبوداود في السنة ٤٦٠٦، وابن ماجه في المقدمة ١٤ ، من حديث عائشة رضي الله عنها.

ويجمع الدلالة على الشرطين مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [1]

أي: أخلص العمل لله وهو متبع الرسول ﷺ [2]. وقوله: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [4].

قوله تعالى: ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ .

قال ابن القيم [5]"إرشاد إلى منصب الإمامة في قوة الدين. كقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [6]. فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين".

﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: أوصى بعضهم بعضاً بلزوم الحق والتمسك به، قولاً وفعلاً واعتقاداً.

قال الزمخشري[7]: "بالأمر الثابت الذي لا يسوغ إنكاره وهو الخير كله من توحيد الله وطاعته، واتباع كتبه ورسله والزهد في الدنيا والرغبة في

---

(١) سورة النساء، آية: ١٢٥.

(٢) انظر "تفسير ابن كثير" ٢/٣٧٤.

(٣) سورة البقرة، آية: ١١٢.

(٤) سورة الكهف، آية: ١١٠.

(٥) انظر "بدائع التفسير" ٥/٣٣٠.

(٦) سورة السجدة، آية: ٢٤.

(٧) في "الكشاف" ٤/٢٣٢.

الآخرة".

وقال ابن كثير[1]: "وهو أداء الطاعات وترك المحرمات".

﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ أي: أوصى بعضهم بعضاً بالصبر، وهو لغة: الحبس والمنع، وشرعاً حبس النفس عن الجزع واللسان عن التشكي والجوارح عما حرم الله، وهو أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة [2].

قال ابن القيم[3]: "والصبر نوعان: نوع على المقدور كالمصائب، ونوع على المشروع، وهذا النوع أيضاً نوعان: صبر على الأوامر، وصبر عن النواهي، فذاك صبر على الإرادة والفعل، وهذا صبر عن الإرادة والفعل. فأما النوع الأول من الصبر فمشترك بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، ولا يثاب عليه لمجرده إن لم يقترن به إيمان واختيار، قال النبي ﷺ في حق ابنته :"مرها فلتصبر ولتحتسب"[4].

وقال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ ﴾[6]، وقال:

---

(١) في "تفسيره" ٨/٥٠٠.

(٢) انظر "تيسير العزيز الحميد" ص٥١٢.

(٣) انظر "بدائع التفسير" ٥/٣٣٠ ، ٣٣١، «الكشاف» ٤/٢٣٢.

(٤) أخرجه البخاري في الجنائز ١٢٨٤، ومسلم في الجنائز ٩٢٣ من حديث أسامة ابن زيد رضي الله عنه.

(٥) سورة هود، آية: ١١.

(٦) سورة آل عمران، آية: ١٢٥.

﴿ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ ﴾[1].

فالصبر بدون الإيمان والتقوى بمترلة قوة البدن الخالي عن الإيمان والتقوى، وعلى حسب اليقين بالمشروع يكون الصبر على المقدور، وقال تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾[2].

فمن قل يقينه قل صبره، ومن قل صبره خفّ واستخف، فالمؤمن الصابر رزين، لأنه ذو لب وعقل، ومن لا يقين له ولا صبر عنده خفيف طائش، تلعب به الأهواء والشهوات، كما تلعب الريح بالشيء الخفيف، والله المستعان".

وقال ابن كثير [3]:"﴿ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾ على المصائب والأقدار، وعلى أذى من يؤذي ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر".

وقال ابن القيم أيضاً[4] بعد ذكر قول الشافعي: "لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم" قال: "وبيان ذلك أن المراتب أربع باستكمالها يحصل للشخص غاية كماله: إحداها: معرفة الحق، الثانية: عمله به، الثالثة: تعليمه من لا يحسنه، الرابعة: صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه.

فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة، وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحد في خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه مرتبة أخرى، وتواصوا بالحق، ووصى

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٢٠.

(٢) سورة الروم، آية: ٦٠.

(٣) في "تفسيره" ٨/٥٠٠.

(٤) انظر "مفتاح دار السعادة» ص٦١. وانظر «عدة الصابرين" ص٧٥، "إغاثة اللهفان" ١/٢٥، "بدائع التفسير" ٥/٣٢٥.

بعضهم بعضاً بالصبر عليه والثبات، فهذه مرتبة رابعة، وهذه نهاية الكمال؛ فإن الكمال أن يكون الشخص كاملاً في نفسه مكملاً لغيره، وكماله بإصلاح قوتيه العلمية والعملية، فصلاح القوة العلمية بالإيمان، وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات، وتكميله غيره بتعليمه إياه، وصبره عليه، وتوصيته بالصبر على العلم والعمل. فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره. والحمد لله الذي جعل كتابه كافياً عن كل ما سواه، شافياً من كل داء، هادياً إلى كل خير".

وقال أيضاً [1]: "فإن العبد لــه حالتان: حالة كمال في نفسه، وحالة تكميل لغيره، وكماله وتكميله موقوف على أمرين: علم بالحق، وصبر عليه. فتضمنت السورة جميع مراتب الكمال الإنساني، من العلم النافع والعمل الصالح، والإحسان إلى نفسه وإلى أخيه به، وانقياده وقبوله لمن يأمره بذلك".

الفوائد والأحكام :

١ – أن لله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته لقولــه ﴿ **وَٱلْعَصْرِ** ﴾ وذلك لأن إقسامه عز وجل بما خلق يدل على عظمته هو، فكأنه عز وجل يقول: أقسم بما خلقت. أما المخلوق فلا يجوز أن يقسم بغير الله لأن القسم تعظيم للمقسَم به، ولا يجوز ذلك إلا لله. قال ﷺ: "من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك" [2]. وقال ﷺ: "لا تحلفوا بآبائكم، من كان

---

(١) انظر "بدائع التفسير" ٥/٣٣٠.

(٢) أخرجه أبوداود في الأيمان والنذور ٣٢٥١، والترمذي في النذور والأيمان ١٥٣٥ ، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وحسنه الترمذي، وصححه ابن حبان ٢٧٨/٦، والحــاكم ١٨/١، ٢٩٧/٤ ووافقه الذهبي، وصححه الألباني. وانظر "تيسير العزيز الحميد" ص٥٨٩.

حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت"[1].

٢- الإشارة إلى ما في العصر وهو الوقت من العبرة والآية، فإن مرور الليالي والأيام والشهور والأعوام وجريان الأفلاك وتعاقب الفصول من أعظم الآيات الكونية، كما أن في ذلك دلالة على أهمية العصر وهو الوقت في حياة الإنسان، لأن الله عز وجل أقسم به للدلالة والتنبيه على أهميته وذلك لأنه محل العمل الصالح الذي به سعادة العبد في دنياه وأخراه، فالأيام والليالي خزائن للأعمال الصالحة، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾[2].

قال ابن القيم[3]:"فأقسم سبحانه بالعصر لمكان العبرة والآية فيه، فإن مرور الليل والنهار على تقدير قدره العزيز العليم منتظم لمصالح العالم على أكمل ترتيب ونظام، وتعاقبهما واعتدالهما تارة، وأخذ أحدهما من صاحبه تارة، واختلافهما في الضوء والظلام، والحر والبرد، وانتشار الحيوان وسكونه، وانقسام العصر إلى القرون والسنين والأشهر والأيام، والساعات وما دونها ــ آية من آيات الرب تعالى، وبرهان من براهين قدرته وحكمته... ".

٣ - أن كل إنسان خاسر إلا من اتصف بالصفات الأربع المذكورة في السورة لأن الله أقسم بالعصر، أن الإنسان لفي خسر، واستثنى من ذلك من

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٧٩، ومسلم في الإيمان ١٦٤٦، من حديث ابن عمر، وأخرجه مسلم ١٦٤٨، من حديث عبد الرحمن بن سمرة.

(٢) سورة الفرقان، آية: ٦٢.

(٣) انظر "بدائع التفسير" ٣٢٨/٥.

اتصف بالصفات المذكورة.

٤ - أن حقيقة الخسران أن يصاب الإنسان في دينه، لأن الصفات الأربع المذكورة كلها مما يتعلق بالدين.

فليست الخسارة أن يصاب الإنسان في ماله أو في نفسه، أو في أهله أو ولده أو قريبه أو صديقه، سواء بمرض، أو بموت، فهذه كلها ــ وإن كانت تعد من المصائب ــ إلا أن الخسارة العظمى والمصيبة الكبرى: أن يصاب الإنسان في دينه فيموت والعياذ بالله على الكفر، أو يموت على المعاصي. نسأل الله السلامة. قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [١].

٥ - أن حقيقة الربح والفوز أن يسلم للإنسان دينه، فكل خسارة أو مصيبة دون ذلك تهون.

٦- وجوب الإيمان والعمل الصالح لقوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ .

٧- أنه لا يكفي مجرد الإيمان دون العمل الصالح، لقولــه: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾، فالإيمان قول وعمل واعتقاد وفي هذا رد على المرجئة الذين يقولون يكفي مجرد الإيمان.

٨- أن من شرط قبول العمل أن يكون صالحاً أي: يتوفر فيه الشرطان: الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ.

---

(١) سورة الزمر، آية: ١٥.

٩- وجوب التواصي بلزوم الحق والأخذ به، والتعاون والتناصح في ذلك، لقوله : ﴿ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ ﴾ .

١٠-أنه لا يكفي مجرد الإيمان والعمل الصالح بالنفس فقط دون وصية الآخرين به وحثهم عليه، والتناصح في ذلك والدعوة إلى الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون في ذلك.

١١-وجوب الصبر، والتواصي به، صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة، لقوله: ﴿ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾ .

١٢-أن من لازم الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق - التواصي بالصبر. فلا يتم الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق إلا بالتواصي بالصبر بأنواعه الثلاثة، فلا يستقيم دين الإنسان إلا بالصبر(١)، وهو نصف الإيمان(٢). قال تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةً يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾(٣) وقال ﷺ: "ما أعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر" (٤).

---

(١) قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس بان الجسد، ثم رفع صوته فقال: ألا لا إيمان لمن لا صبر له" انظر "تيسير العزيز الحميد" ص٥١٢.

(٢) أخرج أبو نعيم في «الحلية» والبيهقي في "شعب الإيمان" أن الصبر نصف الإيمان انظر "تيسير العزيز الحميد" ص٥١٢.

(٣) سورة السجدة، الآية: ٢٤.

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٧٠، ومسلم في الزكاة ١٠٥٣.

قال ابن القيم في كلامه عن هذه السورة [1] "أقسم سبحانه أن كل أحد خاسر إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وكمل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه. فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يتمان إلا بالصبر عليهما والتواصي بهما. كان حقيقاً بالإنسان أن ينفق ساعات عمره، بل أنفاسه فيما ينال به المطالب العالية ويخلص به من الخسران المبين، وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبره واستخراج كنوزه وآثاره ودفائنه، وصرف العناية إليه،والعكوف بالهمة عليه، فإنه الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد، والموصل إلى سبيل الرشاد".

١٣- أن الرابحين حقاً من جمعوا بين الصفات الأربع المذكورة، وهي :الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، لقوله ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ فكل إنسان خاسر إلا من اتصف بهذه الصفات.

قال ابن القيم[2]: "وأن حكمته التي اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين وأفعالهم، وجعلها قسمين خيراً وشراً تأبى أن يسوي بينهم، وأن لا يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته وأن يجعل النوعين رابحين أو خاسرين، بل الإنسان من حيث هو إنسان خاسر، إلا من رحمه الله فهداه ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه، وأمره غيره به، وهذا نظير رده الإنسان إلى أسفل

---

(١) انظر "مدارج السالكين" ١/ ٦ ـــ ٧، "بدائع التفسير" ٣٢٧/٥، وانظر "تيسير الكريم الرحمن" ٦٦٩/٧.

(٢) انظر "بدائع الفوائد" ٣٢٩/٥.

سافلين واستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هؤلاء المردودين".

وقال أيضاً[1]: "لو أن الناس أخذوا بهذه السورة لوسعتهم أو كفتهم، كما قال الشافعي رضي الله عنه: لو فكر الناس في سورة العصر لكفتهم. فإنه سبحانه قسم نوع الإنسان فيها قسمين: خاسراً، ورابحاً، فالرابح من نصح نفسه بالإيمان والعمل الصالح، ونصح الخلق بالوصية بالحق المتضمنة لتعليمه وإرشاده، والوصية بالصبر المتضمنة لصبره هو أيضاً. فتضمنت السورة النصيحتين والتكميلتين وغاية كمال القوتين بأخصر لفظ وأوجزه وأهذبه وأحسنه ديباجة وألطفه موقعاً".

وقال السعدي[2]: "والخسار مراتب متعددة متفاوتة: قد يكون خاسراً مطلقاً، كحال من خسر الدنيا والآخرة، وفاته النعيم، واستحق الجحيم، وقد يكون خاسراً من بعض الوجوه دون بعض، ولهذا عمم الله الخسار لكل إنسان، إلا من اتصف بأربع صفات: الإيمان بما أمر الله بالإيمان به، ولا يكون الإيمان بدون العلم، فهو فرع عنه لا يتم إلا به، والعمل الصالح، وهذا شامل لأفعال الخير كلها، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحقوق الله، وحقوق عباده، الواجبة والمستحبة. والتواصي بالحق، الذي هو الإيمان والعمل الصالح، أي: يوصي بعضهم بعضاً بذلك، ويحثه عليه، ويرغبه فيه، والتواصي بالصبر على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلمة، فبالأمرين الأولين، يكمِّل العبد نفسه. وبالأمرين الأخيرين يكمِّل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة، يكون العبد قد سلم من الخسار، وفاز بالربح العظيم".

---

(١) انظر "الكلام على مسألة السماع" ص٤٠٤، "بدائع التفسير" ٥/٣٢٧ ـــ ٣٢٨.

(٢) "تيسير الكريم الرحمن" ٧/٦٧٠.

وقفة تأمل :

أخي المسلم: قف عند كل آية من آيات هذه السورة العظيمة بل عند كل كلمة منها، بل عند كل حرف وتأمل فيها.

تأمل وتفكر، لماذا أقسم المولى عز وجل بالعصر؟ وما هو العصر؟ وما حقيقة الخسارة؟ وما حقيقة الربح؟

واعلم أن الله عز وجل أقسم بالعصر تنبيها وتذكيراً وإشارة ودلالة على أهمية العصر وعظيم قيمته ووجوب حفظه، والعصر هو الزمن، وهو عمر الإنسان، الذي لا يقدر بثمن عند من عرف أن الأمر جد، ليس بالهزل كما قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾[1].

وكما قيل:

قد رشحوك لأمر لو فطنت لــه فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل[2]

وقال الآخر:

الأمر جـــد وهو غير مزاح فاعمل لنفسك صالحاً يا صاح

وعند من عرف قدر الحياة وأنها ميدان التنافس والتسابق والمسارعة للأعمال الصالحة التي فيها السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة، كما قال عز وجل: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ

---

(١) سورة القيامة، آية: ٣٦.

(٢) البيت للطغرائي وهو في ديوانه ص٣٠٩.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٣٣.

﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ ۝ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴾[3].ونعمت المسابقة والمسارعة والمنافسة والله المستعان.

و لم أجد الإنسان إلا ابن سعيه فمن كان أسعى كان بالمجد أجدرا

فلم يتأخر من أراد تقـدمـاً و لم يتقدم من أراد تأخـرا [4]

أخي في الله لا يغررك ما عليه كثير من الناس من المنافسة على أمور الدنيا الفانية، والزهد فيما دعاهم الله إليه من المنافسة والمسارعة والمسابقة فيما فيه سعادة الدارين من الأعمال الصالحة،وتأمل قول الله عز وجل: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾[5].

وقوله عز وجل: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[7]،

---

(١) سورة الحديد، آية: ٢١.

(٢) سورة الواقعة، آية: ١٠.

(٣) سورة المطففين، آية: ٢٦.

(٤) هذان البيتان لابن هانئ، انظر «ديوانه» ص١٤٠.

(٥) سورة ص، آية: ٢٤.

(٦) سورة يوسف، آية: ١٠٣.

(٧) سورة الأنعام، آية: ١١٦.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [1].

وقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال "لا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين ولا تستوحش من الحق لقلة السالكين"

فخذ - أخي في الله - نفسك بالجد والمنافسة والمسابقة والمسارعة في الخير، ولا تنس نصيبك من الدنيا، واعلم أن الغبطة حقاً في العمل الصالح، الذي هو صمام الأمان وسر السعادة في الدنيا والآخرة، فاجعل منافستك في ذلك،كن سباقاً إلى المساجد وإلى أداء الواجبات من حقوق الله وحقوق الخلق، كن ورعاً مبتعداً عن محارم الله.وإذا رأيت من ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة ".

واعلم وفقك الله أن الغبن في هذا ليس باليسير، بل لا يكاد يوصف، وفرق ما بين الثرى والثريا. وكما قيل:

سوف ترى إذا انجلى الغبار   أفرسٌ تحتك أم حمار [2]

واعلم أن الخسارة في هذا لا تشبهها خسارة، فالخسارة الكبرى والمصيبة العظمى، والكسر الذي لا يمكن جبره أن يصاب الإنسان في دينه فيخسر دنياه وآخرته ونفسه وأهله وولده وماله وكل شيء، كما قال عز وجل: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [3].

واعلم أن الربح في هذا لا يقدر ولا يحد، بل هو سعادة الدنيا والآخرة، نسأل

---

(١) سورة سبأ، آية: ١٣.

(٢) انظر "مجمع الأمثال" ٣٤٤/١. والبيت لا يعرف لـه قائل.

(٣) سورة الزمر، آية: ١٥.

الله تعالى من فضله التوفيق للإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، فهذا غاية الربح، وهذا تمام النعمة الذي عناه الله عز وجل بقوله: ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ﴾[1]،وبقوله: ﴿ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾[2]. وهو طريق الذين أنعم الله عليهم النعمة الحقيقية كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ [3].

وهو الهداية المنشودة لعباد الله بقولهم ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [4].

فقف أخي – بارك الله فيك – على مفترق هذين الطريقين وتأمل ببصيرة وحضور قلب، وقارن وقلّب الفكر والنظر عسى أن يظهر لك ويتبين البون الشاسع والفرق الواسع فتجتنب طريق أهل الخسران، وتلزم طريق أهل الربح والسعادة والإنعام ، وما أراك تعدل به طريقا وفقك الله.

واعلم – أخي الكريم – أن الربح والسعادة مطلب لكل أحد، فكل يسعى بحثاً عن ذلك، لكن المؤسف حقاً – كم هم الذين عرفوا طريق السعادة حقاً؟

– سؤال يطرح نفسه، وجوابه باختصار:

أن السواد الأعظم من الناس جهلوا طريق السعادة، بل طلبوها في غير

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٥٠.

(٢) سورة المائدة، آية: ٣.

(٣) سورة النساء، الآيتان ٦٩، ٧٠.

(٤) سورة الفاتحة، الآيتان: ٦، ٧.

مظاهًا فصدق فيهم قول الشاعر:

ترجو النجاة و لم تسلك مسالكها إن السفينه لا تجري على اليبس[1]

ففئام من الناس حسبوا الربح والسعادة بالسعي لتحقيق شهوات النفس، وإرخاء العنان لها في ذلك، ولو كان مما حرم الله، كالفجور وشرب الخمور والغناء والمجون ونحو ذلك، وأين لهؤلاء الربح والسعادة، وقد طلبوهما بما يحقق الخسران والشقاوة ؟!

وفئام من الناس حسبوا الربح والسعادة في الانهماك بالمباحات فهم يلهثون وراء جمع المال، وتنويع المآكل والمشارب، واختيار الملابس الأنيقة، والفرش الوثيرة، والمساكن المزخرفة، والمراكب الفاخرة والموضات والموديلات والمخترعات والأسفار والتنقلات بين الدول والبلدان بحثاً عن الأجواء اللطيفة المعتدلة، والحدائق الغناء والمناظر الجميلة والآثار القديمة والملاعب والملاهي - وهؤلاء أيضاً أخطؤوا طريق السعادة وحرموا منها، فلم يذوقوا لها طعما.

وأقول لأولئك وهؤلاء ولنفسي ولكل من يطلب الربح والسعادة حقاً: أبى الله أن يكون الربح والسعادة إلا بالإيمان والعمل الصالح تحت مظلة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[2].

ولله در الحسن البصري - رحمه الله - حيث قال: "مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا ألذّ ما فيها" ، نعم والله إننا مساكين، فما أكثر الذين خرجوا ويخرجون من الدنيا وما ذاقوا ألذّ ما فيها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[3]: "إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة".

---

(١) البيت لأبي العتاهية، وهو في ديوانه ص١٩٤.

(٢) سورة الفاتحة، آية: ٤.

(٣) انظر "الوابل الصيب" ٦٩/١.

فليت شعري من ذاق منا تلك اللذّة، لذة الإيمان، ومن دخل منا تلك الجنة جنة التنعم بتلقي أوامر الديان، وخدمته، والتلذذ بمناجاته وعبادته، والتوكل عليه، فهذا غاية الربح ومنتهى السعادة، نسأل الله الكريم من فضله.

فَتَذَوَّق - أخي - لذة الإيمان، وتنعم بجنة الدنيا بالانقياد للملك الديان، وأسلم وجهك له، وسلّم أمرك إليه كما قال عز وجل ﴿ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ ﴾[1]، فإن أخذت بهذا فأبشر فأنت ولدت الآن.

هنا تجد في نفسك محبة الله ومحبة رسوله ﷺ ومحبة الخير وأهله، هنا تجد محبة المسارعة لأداء الواجبات من حقوق الله وحقوق الخلق، وأعمال البر كلها، هنا تجد الورع عن المحرمات، تجد في الله عوضاً عن كل ما فاتك من الدنيا ولا تأس على شيء منها، وإنما تحزن على ما فاتك من نصيبك من ربك، تجد قلبك معلقاً بالمساجد، تجد أحلى صوت تسمعه:الله أكبر،تجد أسعد اللحظات في عمرك وقوفك مصلياً تناجي ملك الملوك، أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، المولى العزيز الرحيم، تجد القناعة في نفسك، تجدك لا تحس بالفراغ النفسي لامتلاء قلبك بحب الله وما يقربك إليه. إن طلب الناس السعادة في المساكن والمراكب والمنتزهات وأنواع الشهوات والملذات طلبتها في مناجاة الله، وتدبر كلامه والقيام بطاعته وأمره، وهذا قمة السعادة.

هنا تجد الأمن، تجد الطمأنينة، تجد الرضى بما قسم الله لك، تجد البركة في العمر ولو كان قصيراً، تجد البركة في الرزق وإن كان مضيقاً، تجد تيسير الله لأمورك، وتسخيره الخلق لك بلا درهم منك لهم ولا دينار، وصدق الله العظيم حيث قال: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا

(١) سورة هود، آية: ١٢٣.

يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [1].

وختاماً: فإن من لم يجد السعادة بتلقي أوامر الله وتنفيذها، والحذر من نواهيه والبعد عنها وإسلام الوجه لله، وتسليم الأمر لـــه والتوكل عليه فلن يجد للسعادة طعماً ولو حيزت لـــه الدنيا بحذافيرها.

(١) سورة الطلاق، آية: ٢، ٣.

الخاتمـــة :

الحمد لله ذي الجلال والإنعام، والصلاة والسلام على سيد الخلق، وخير الأنام، نبينـــا محمد وعلى آلـــه وصحـــبه بدور الدجى، ومصـــابيح الظلام.. أما بعد:

فمن خلال البحث والتأمل في آيات هذه السورة العظيمة (سورة العصر) تتجلى نتائج عدة من أهمها:

١- تحقيق معنى تلك العبارة التي أطلقها الإمام الشافعي رحمه الله حينما قال: "لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم"[(١)].

٢- أهمية الوقت، ووجوب اغتنامه، بما يسعد الإنسان في دنياه وأخراه.

٣- أن الربح والسعادة الحقيقية بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، وأن أي إنسان خاسر إلا من أخذ بهذا المنهج.

٤- أن الخسارة العظمى هي الخسارة في الدين، وهي المصيبة الكبرى.

٥- عدم الاغترار بما عليه كثير من الناس من الإقبال على الدنيا والزهد في الآخرة.

٦- أن العاقل اللبيب من أخذ نفسه بالجد والمنافسة في الخير، ولم ينس نصيبه من الدنيا.

٧- أن الغبطة حقاً في العمل الصالح الذي هو صمام الأمان وسر السعادة في الدنيا والآخرة.

٨- أن الغبن في ذلك ليس بالشيء اليسير، فالخسارة في الدين لا تشبهها خسارة، والربح في الدين لا يقدر قدره، فهو سعادة الدارين.

٩- أن السواد الأعظم من الناس جهلوا طريق السعادة، بل طلبوها في غير موضعها.

١٠-أبى الله أن يكون الربح والسعادة إلا بالإيمان والعمل الصالح تحت مظلة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[(٢)].

١١-إلى غير ذلك من النتائج والفوائد التي اشتمل عليها هذا البحث. أسأل الله العلي القدير أن ينفع به، وأن يرزقني الإخلاص في القول والعمل. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آلـــه وصحبه أجمعين.

---

(١) راجع ص١٧٣.

(٢) سورة الفاتحة، آية: ٥.

ثبت المراجع :

١- **إغاثة اللهفان لابن القيم (٧٥١هـ)** ، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م، المكتب الإسلامي.

٢- **بدائع التفسير لابن القيم** ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م، دار ابن الجوزي.

٣- **بدائع الفوائد لابن القيم** ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٤- **تفسير آيات الأحكام في سورة النساء**، للدكتور سليمان اللاحم.

٥- **تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير (٧٧٤هـ)**، طبعة دار الشعب، مصر.

٦- **تيسير العزيز الحميد**، للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، ١٢٣٣هـ .

٧- **تيسير الكريم الرحمن للسعدي (١٣٧٦هـ)** تحقيق محمد زهري النجار، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٨- **الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦٧١هـ)**، طبعة ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.

٩- **ديوان أبي العتاهية** ، تحقيق شكري فيصل، طبع جامعة دمشق ١٩٦٥م.

١٠- **ديوان أبي العلاء المعري "سقط الزند"**، دار صادر بيروت ١٩٦٣م.

١١- **ديوان أحمد شوقي "الشوقيات"** ،طبع المكتبة التجارية الكبرى عام ١٣٨٤هـ.

١٢- **ديوان ابن هانئ الأندلسي**، دار بيروت للطباعة والنشر،طبعة ١٣٨٤هـ.

١٣- **ديوان حميد بن ثور الهلالي**، تحقيق عبد العزيز الميمني، طبع الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة عام ١٣٧١هـ.

١٤- **ديوان الطغرائي**، تحقيق الدكتور على جواد الطاهر والدكتور يحيى الجبوري، طبعة دار القلم، الكويت.

١٥- **سنن ابن ماجه م(٢٧٥هـ)**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ١٣٧٢هـ-

١٩٥٢م، دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابي الحلبي.
١٦- **سنن أبي داود م (٢٧٥هـ)**، تعليق عزت الدعاس، الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م.
١٧- **سنن الترمذي م(٢٧٩هـ)**، تحقيق أحمد شاكر و محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، دار الفكر العربي، بيروت.
١٨- **صحيح البخاري مع فتح الباري**، تصحيح وتحقيق بإشراف الشيخ عبد العزيز ابن باز، رئاسة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.
١٩- **صحيح مسلم**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م، دار الفكر العربي، بيروت.
٢٠- **الكشاف للزمخشري م (٥٣٨هـ)** ، دار المعرفة، بيروت.
٢١- **مجمع الأمثال**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار القلم، بيروت - لبنان.
٢٢- **مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية**، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ.
٢٣- **مدارج السالكين لابن القيم**، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، دار الجيل، بيروت.
٢٤- **الوابل الصيب لابن القيم** .